تكذيب إيلدريج

ارشيف TJ/عدد15/ الإصدار2، تكذيب إيلدرج

كتبه: چون وودموراب

عرض نقدي لكتاب: انتصار نظرية التطور وسقوط مذهب الخلق

بقلم "نايلز إيلدرچ"

تشهد الكتب المناهضة لنظرية الخلق رواجًا غير عادٍ فى الأسواق، وإن كان معظمها يتسم بعدم الدقة، لدرجة أنها لا تستحق عناء كتابة نقدً لها. هذا الكتاب ربما يكون أفضلها. أول ما أستهل به هو أن هذا الكتاب قد عفا عليه الزمن، ويتألف من نفس الأفكار لنفس المؤلف فى كتاب ضد نظرية الخلق قد ألفه منذ ما يقرب من عشرين عامًا. و بالرغم من أن الدكتور" دوان جيش" قد قام بدحض وتفنيد ادعاءاته ببراعة، إلا أن أفكار الكتاب قد وجدت لها طريقًا، ولا أجد تعليقًا على ذلك، لتدخل ضمن محتويات هذا الكتاب الجديد.

وباستثناء القدر اليسير من المعلومات الجديدة مثل "حركة التصميم الذكي" فإن هذا الكتاب بالكامل لا يفيدنا بشيء عن التطورات التى شهدتها الحركة العلمية الخاصة بنظرية الخلق فى العشرين عامًا المنصرمة. فعلى سبيل المثال، لم يخبرنا شيئًا عن المؤتمرات الدولية الأربعة الخاصة بنظرية الخلق، وخدمة "AiG "، وهى خدمة تقوم بالدفاع عن الإيمان المسيحي تهتم بتوفير إجابات لأية أسئلة تتعلق بسفر التكوين، إذ أنه أكثر أسفار الكتاب المقدس التي تعرضت للهجوم. ومشروع"RATE" (وهو مشروع بحث يهتم بالنظائر المشعة وتحديد عمر الأرض).

وأشد ما يدهشك أن تعرف أن إيلدرچ يساند "نظرية التلخيص للأجنة" لإرنست هيكل، وهي نظرية ثبت زيفها منذ وقت بعيد. يمتلئ كتابه هذا بالكثيرمن الأخطاء الفادحة عن الحقائق الثابتة. على سبيل المثال، ملاحظاته عن التطور، والتى تبدو إلزامية،وهى مجرد نظرية كما أن كروية الأرض هى نظرية أيضًا فى نظر البعض، ولكن إيلدرچ يكرر الإشاعة التي انتشرت بين البحارة في زمن كولومبوس، والذين كانوا يخشون الإبحار فوق أرض مستوية.

والحقيقة أن كروية الأرض كانت فكرة مقبولة على نطاق واسع قبل كولومبوس بوقت بعيد، ولكن ربما يمكننا أن نغض الطرف عن خطأ إيلدرچ الفادح بشأن هذه المسألة، لأنه لا يكف عن ترديد أسطورة ألفتها آذاننا كثيرًا. ومع ذلك فإن أخطاءه الأخرى لا ترتئي لفداحة هذا الأمر. فقد قال بالفعل: " إن أنصار مذهب الخلق قد صمتوا بشكل ملحوظ حتى الآن بخصوص فكرة الأطباق التكتونية".

ليته يقول ذلك لدكتور جون بومجاردنير والذى أصبح ذائع الصيت، لسنوات طويلة، فى دوائر العلماء المؤيدين لنظرية الخلق، بنظريته عن "الصفائح التكتونية". كما أنه يلقى احتراماً بين الدوائر العلمانية إلى وقتنا هذا. ناهيك عن خلفاء بومجاردنير من أنصار نظرية الخلق الذين كتبوا عن الأطباق التكتونية (انظر أيضًا اسئلة وأجوبة:الأطباق التكتونية)

دليل آخر يوضح الفهم السطحي لإيلدرچ عن نظرية الخلق هو ملاحظاته عن ضرورة وجود عشرة ملايين نوع من الكائنات الحية على سطح فلك نوح.

وهى إشاعة معادة ومستهلكة ضد مؤيدي نظرية الخلق، وظهر زيفها منذ عقود، وأيضًا فى الآونة الأخيرة. آخذًا فى الاعتبار أنه يقرِّع إنصار مذهب الخلق بواسطة اقتباسات وجمل غير دقيقة. ومن الأفضل ينظر إيلدرچ إلى نفسه أولاً.

يعرِّف إيلدرچ نفسه على أنه معمداني مرتد(أنهى عضويته فى الكنيسة المعمدانية)، وملحد . وفى موضع آخر من الكتاب يقرِّع أولئك التطوريين (الذين يؤمنون بمذهب التطور) من أمثال (رتشارد داوكنز)، والذي يتفق مع أنصار مذهب الخلق على أن التطور إلحادي فى حد ذاته، ولكن فى مواضع أخرى نجد انحيازه واضحًا .فهو يخبرنا بأنه إن كان الله قد خلق الحياة، فمن المستحيل أن نعرف هذه الحقيقة بطريقة علمية ، وأن التفسيرات الطبيعية فقط هي التي تخضع للاختبار بوسائل علمية.

وبالإضافة إلى هذه الأفكار التجريبية الراديكالية المسبقة، فإن إيلدرچ يتجاهل تمامًا حقيقة أنه بينما لا يمكننا أن نُخضع العمليات الفائقة للطبيعة للاختبار، إلا أن نتائج الأحداث الفائقة للطبيعة يمكن أن تخضع للاختبار، وهذا بعينه ما يفعله أنصار مذهب الخلق. وفى تقريعه لأنصار مذهب الخلق من أجل روايتهم عن عدم وجود أحد هناك ليلاحظ ما حدث تمامًا فى الماضي السحيق، فقد أغفل إيلدرچ أيضًا حقيقة أن عمليات المنشأ الطبيعية لا يمكن أن تخضع مباشرةً للاختبار، وإنما نتائجها فحسب.

وليس من المدهش أن يردد إيلدرچ التعويذة المعتادة التي تقول: التطور حقيقة، على عكس الخلق، مثله في ذلك مثل كل مناهضي نظرية الخلق، محاولاً بذلك أن يثير نزاعاً بين "العلم والدين". ومع ذلك، إحقاقًا للحق، فهو يعترف أن الكثير من العلماء الأولين كانوا متدينين. ولكنه فشل بالرغم من هذا بشكل ملفت للنظر أن يذكر أن أكثر علماء الأحياء الرواد كانوا مؤمنين بنظرية الخلق بقدر ما (الشيء الذي يؤدي إلى إجبار إيلدرچ على الاعتراف بأنه بإمكان المرء أن يكون مناصراً لمذهب الخلق وعالماً في نفس الوقت. كما أنه يمتعض من حقيقة أن بعض أنصار مذهب الخلق يقدمون أعمالهم وكأنها علمية بالمقارنة بأولئك "الأمناء " من أنصار نظرية الخلق الذين يقرون بدوافعهم الدينية . كما لو كان من المستحيل أن تجمع بين الوجهتين.

فى إشارة منه إلى أن الكثير من أنصار مذهب الخلق يقامون نظرية التطور لأنهم يرون أنها شرٌ. كما أغفل أن يضع فى عين الاعتبار التجليات الأخرى لنفس الظاهرة. وربما يكون أحد هذة التجليات هو مناهضة النظريات العلمية العنصرية من قبل أولئك الذين يناهضون مذهب التمييز والتفرقة العنصرية، خاصة عندما تكون هذه النظريات العنصرية ليس لها أساس علمي كاف (انظر أيضًا :أسئلة وأجوبة: العنصرية)

وفى ضوء السياسات الداعمة لنظرية التطور التى تجري الآن على قدم وساق في الولايات المتحدة الأمريكية، أجد أشد ما يصعقني وهو قراءة هذا المقترح الدراسي الذي قدمه إيلدرج: "إن غرض علم التدريس ليس أن نثبت أذهان الأطفال على الجانب (العلماني) الإنساني أو الطبيعي من الحرب الثقافية التي نحن منخرطون فيها بالفعل، وإنما تعليمهم ماهية العلم"

وقد نجد أنفسنا شديدي التأييد لذلك! ولكن المشكلة الوحيدة هي أن إيلدرج كمن يؤذن فى مالطة.عليه أن يحتفظ بتعليقاته إلى أتباعه من مؤيدي نظرية التطور، والذين لا يتمتع أكثريتهم بالموضوعية اللازمة لأن يعلموا التلاميذ مشكلات نظرية التطور (ولا يهم البديل الخاص بنظرية الخلق)." لأن هذا ربما يسبب لهم الارتباك". هؤلاء هم أتباع مذهب الإنسانية الذين يعلموننا وجوب تعليم الصغار كيف يفكرون وكيف يسألون ويجادلون ـ بالطبع فقط عندما ينتمي المحتوى محل النقاش للمذهب الإنساني، كنظرية النشوء البيولوجي.

يوبخ إيلدرج أنصار مذهب الخلق بسبب رؤيتهم التقدمية المفرطة لنظرية التطور (والتي مفادها أن الحياة فى الماضي كانت بدائية، والحياة الآن أكثر تقدمًا).

ومع ذلك ، فقد حبَّر إيلدرج 8 صفحات لمناصرة هذا النمط من التفكير عندما ادعى أن السجلات الحفرية تدعم نظرية التطور فى تكهناتها العظيمة .... "الأشكال البدائية الأبسط تسبق الأشكال التطورية الأكثر تعقيدًا المنحدرة منها". في النهاية ، يجب أن ندرك أن السؤال عن مدى "التقدمية" في عملية التطور/ الارتقاء قد كان مثار جدل كبير بين أصحاب مذهب التطور على مدار قرن من الزمان، وبدون إجابة صحيحة.

وبالإمعان فى السجل الأحفوري (سجل الحفريات) نجد أن إيلدرج قضى وقتًا يتحدث عن إشكالية الحياة الحيوانية فى العصر الادريكاني إذ أنه يدَّعى أنها تملأ جزئياً الفجوة المؤدية إلى شكل الحياة فى العصر الكامبري، وهذا غير صحيح. دعونا نقتبس من أحد المنشورات الحديثة حتى نؤكد حقيقة أن الانفجار الكامبري قد بقي على حاله.

"ظهرت البعديات (المتيازوا) المعقدة مورفولوجياً فجأةً بعد الانفجار الكامبري.. يسجل الانفجار الكامبري أول ظهور لسلسلة عريضة من مملكة ثنائيات التناظر على نحو من التعقيد لم تشهدها الحقبات السابقة". لقد فشل إيلدرج تمامًا فى فهم "الاركيبوبتركس"، وليس لأنه أغفل ذكر "حفريات الطيور البدائية" المكتشفة حديثًا، والتي تدحض الأصول التطورية المفترضة، كما أنه لم يستوعب اعترضات أنصار مذهب الخلق على الاركيوبتركس.

هذة القضية واضحة تمامًا، ليس لأن الاركيوبتركس يحتوي على مزج بين صفات الزواحف والطيور، ولكن لماذا إذا كان الارتقاء من الزواحف إلى الطيور حقيقًا، لماذا لا نجد حلقة بينية "متوسطة" من الحيوانات ذات الأجنحة والأرجل فى نفس الوقت؟ (انحسار تدريجي في الأرجل إلى ظهور متزايد للأجنحة)، وبالتالي نسد الفجوة بين الرتبتين؟

لابد أن أعترف أنني لم أتمالك نفسي من الضحك بسبب معالجة إيلدرج للارتقاء الإنساني. فهو يعتبر أن الزيادة الملحوظة فى حجم المخ في "الهومينيدات" القردة العليا "الكابوس الأفظع لنظرية الخلق". حسناً، فإن إيلدرج هو من يستغرق فى الأحلام.

الحقائق واضحة، عندما نقارن بين أبرز الصفات التشريحية بين كل أفراد فصيلة القردة العليا في آن واحد، سيتبين لنا أن كل فرقة منقرضة تشكل مجموعات مورفولوجية مستقلة. وهذا لا يتسق مع تغير ارتقائي تقادمي من فرقة إلى أخرى، بل بالأحرى يشير إلى زيف وتصنع سيناريوهات نظرية التطور، والتي تحاول أن ترسم لنا القردة العليا المنقرضة على أنها هي حلقة الارتقاء التي توصل ذروتها إلى الإنسان الحديث.

وفى مواضع كثيرة من الكتاب يتحدث إيلدرج عن التنبؤات الناجحة لنظرية الارتقاء، وبصرف النظر عن الاستقصاء عن صلة وأصالة هذه التنبؤات بنظرية التطور، علينا أن نشير إلى ما لم يشير إليه إيلدرج من التنبؤات العديدة لنظرية التطور التي لم تتحقق. يتعلق أحد هذه التنبؤات بالجينوم (المكون الجيني) للميتزوا (البعديات).

"فى وقت ما كان يبدو محتملاً أن كمية الحمض النووي DNA تعد معياراً جيداً لمستوى التعقيد (sneath 1964)، والآن أصبح حجم الجينوم معروفاً فقد أظهر ذلك علاقة ليست بكبيرة بالتعقيد المورفولوجي المدرك بالحواس"

يجعل إيلدرج من الهرم التداخلي المزعوم للكائنات الحية هو الدليل على صحة نظرية التطور ، وعلى النقيض من ذلك كما أوضح "جيش" فإن تصنيف الكائنات طبقاً للهرم التداخلي قد تم في وقت سابق للدارونية على يد "لينيوس"، وهو عالم تكويني، ولذلك لا يعد هذا تنبؤاً لنظرية التطور.

أما الأمر الثاني فهو على الرغم من وجود تصنيف تداخلي للكائنات الحية ، فإن إيلدرج يفترض أنه يعرف أن فكرة الخالق لن تؤكد أن الله لم يخلق الحياة فى صورة هرم تداخلي . وأخيرًا، عندما نفترض إمكانية أن الله ربما أراد أن يستخدم نفس أفكار التصميم مراراً وتكراراً، فإن إيلدرج يفترض أن الله لم يفعل ذلك بهذا الشكل الذي يؤدي إلى استنتاج وجود تقسيمات هرمية للأنساب .

وبصرف النظر عن افتراض وجود الله مرة أخرى، فإن إيلدرج يروج لافتراض معيب لدرجة خطيرة. وهو أنه كلما زادت التفاصيل المرفولوجية، كان من الصعب جداً أن يحدد علماء التطور "التطوريون" ما إذا كانت هذه السمة هي نتاج سلسلة أنساب مشتركة (تنادد)، أو أيهما مشتقة ظاهرياً وبطريقة مستقلة (محاكاة أو تشابه).

هناك العديد من السمات المورفولوجية التي لا تنطبق على نموذج النظام المتداخل لسلالات متشعبة من أصل تطوري.

وأن نفس السمة غالباً ما تظهر في الكائنات الحية، والتي لا يُعتقد أنها ذات علاقة قوية بنظرية التطور. وهذا يحدث مرات كثيرة، الشيء الذي يبطل فرضية إيلدرج عن الهرميات المتداخلة.

"إن الخلاف حول الطبيعة التجانسية أو (التشابهية) للسمات المتشابهة المشتقة من نفس المصدر بين التصنيفات يرتكز في عمق الصراع مع فرضية العلاقات التطورية ذات الأصل المشترك ".

هذا يعني أنه بينما يصف الهرم المتداخل للكائنات الحية عندما تُظهر على أساس السمات المتشابهة والاختلافات العامة، إلا أنه لا يفيد شيئاً عندما يتواجد عدد كبير من السمات المتشابهة والاختلافات المورفولوجية المفصلة عندما يُنظر إليها في نفس الوقت.

بالإضافة إلى أن الهرميات المتداخلة التي ظهرت في وقت مبكر وتم تصديقها سقطت بمجرد أن تراكمت الشواهد والأدلة. على سبيل المثال، عائلة "الميزونايخيا" و"الحيتانيات"، والتي كانت لفترة طويلة يُعتقد أنها من نفس الرتبة بناء على سلسلة متشابكة جدًا من السمات المتشابهة المشتركة بينهما، ولكن هذا النموذج لم يعد يُعتقد أنه يشير إلى صلة نسب تطورية قريبة. "إن نتائج كل الشواهد تشير إلى التشابهات الهيكلية بين عائلة الميزونايخيا والحيتانيات هو عبارة عن محاكاة (homoplasy)".

(ملحوظة: بعد صدور هذا المقال، ظهر دليل جديد يثبت ما نحن بصدده ـ ولكن الآن يعتقد التطوريون أن الحيتان أقرب إلى ذوات الظلف (الحافر المشقوق).(انظر: تطور الحيتان)

على الرغم من هذا ،وبين ثنايا الكتاب ، يتعامل إيلدرج بتكهن عن نظرية التطور كحقيقة علمية راسخة، وأحيانًا أخرى وبكل صراحة يتنازل عن ذلك، ويُظهر لنا أن قبول نظرية التطور ما هو إلا قفزة إيمانية عمياء. ويبرر المنشأ الذاتي للحياة بإبلاغنا (كما يتخيل) أن أبسط الجزئيات القادرة على التضاعف الذاتي غير معروفة، لأنها استبدلت بالتتابع بحياة أحادية الخلية شديدة التعقيد.

مرة أخرى، يخبرنا أن الظهور الفجائي لبعض الحفريات هو مثال مدهش للسرعة المذهلة التي يسير بها درب التطور.

هذا ما يجعلنا نتساءل أية قدرة إلهية جعلته يعرف كل هذا! كما أنه أحد أصحاب نظرية "التوازن المتقطع"، فإنه يحاول التشكيك فيما يتعلق بظاهرة عدم وجود الحفريات البينية، وهذا يعني أنه يخبرنا فقط بأن التطور حدث بسرعة شديدة حتى أن السجلات الحفرية لم تظهر بكامل تفاصيلها.

مرة أخرى إن إيمان التطوريين بالقضية هو أمر مدهش يسترعي الانتباه !

فى ذات الوقت، بالكاد نرى إيلدرج يلتفت إلى التفسيرات البديلة لنظرية الخلق فى مقابل بيانات تبدو داعمة لنظرية التطور. على سبيل المثال فإنه يشير إلى الظهور التقدمي للأمونيتات بنفس خطوط الدرز للرأسقدميات والذبابيات كدلائل حاسمة ومقنعة لنظرية التطور ، وبدون التلميح بنفس القدر إلى أن هذه الدلائل يمكن تفسيرها إيكولوجيًا (بيئيًا) دون اللجوء إلى نظرية التطور.

إن تناول إيلدرج للعلوم الجيولوجية ليس أفضل من تناوله لعلم الأحياء (العلوم البيولوجية)، فهو يمزق أنصار مذهب الخلق بسبب اتهامهم للتطوريين بتجاهل حفريات وجدت في طبقات أرضية "خاطئة" مدعين أنها "كذبة خبيثة".

ومع ذلك، فإن حقيقة أن التطوريين على الأقل يفعلون هذا أحيانًا يمكن توثيقها.

استشهد بمثالين (البلمونيت وتيهات الأسنان) التي لها وجود فى طبقات أرضية مختلفة، وقد تم تجاهلها لمدة طويلة لأنها لا تتفق مع الأفكار التطورية الحالية عن الزمن "الصحيح" لظهورها في سجل الحفريات، وبالنسبة لكلا الحالتين المختلفتين، قد تم الاعتراف بهما في مطبوعاتهم. وقد جاء الأمر بالنسبة لي مصادفة، ولا أدري كم من الأشياء الأخرى التي لم تذكر فى أي من الكتب.

وبمناقشة تاريخ تطور العامود الجيولوجي، نجد أن إيلدرج قد قفز قفزة هائلة من الارتباط المباشر للصخور الحاملة للحفريات كما افترضه "وليم سميث" الملقب بـ "ستراتا strata" إلى العديد من الفرضيات والفروقات الطفيفة بين العلاقة الطباقية بين القارات وداخل القارات بعضها البعض.

وهو يحاول أن يدفعنا نحو تصديق نفس الشيء، وهذا غير صحيح.

فحركة القارات تحتوي، على سبيل المثال، على تطابق مدفوع بافتراض معقد لمنطقة الحفريات والحفريات المرشدة (الدالة)، وجميعها يُفترض أنها انبثقت ودامت لمرحلة قصيرة من الزمن.

أيضًا يخبرنا إيلدرج أن "سيجويك ومرتشيزون" قد قاما بوصف الأنظمة الباليوزية السفلى مباشرة كنتيجة لتطبيق قانون تتابع/ تعاقب الطبقات .

وغالباً إن الطبيعة التوافقية للعامود الجيولوجي قد اثبت بحقيقة أن أنظمة العصر الكامبري والساليوري قد سُميت بناء على الصخور البارزة المكانية ، قبل أن تُثبت علاقاتها الطباقية شبه القارية الخاصة.

ولإن وجدت متداخلة "بدلا من متتابعة/ متعاقبة " ، لذلك كان العصر الكامبري يُنظر إليه كمقدمة للعصر الساليوري.

واستنادًا إلى رأي الكثيرين، فإن إيلدرچ يدعي أن العامود الجيولوجي قد تأسس على يد أنصار نظرية الخلق. بالطبع هذا يعتمد على تعريفك "لنظرية الخلق". ويمكننا أن نجادل بأن الاستعداد لقبول "الأرض القديمة" أو انكار الفيضان الكوني يبطل مهنة أن تكون عالمًا تكوينيًا .(ملحوظة: المدعُّون التكوينيون أنصار مبدأ الأرض العتيقة في الحاضر والماضي كانوا وما زالوا أشباه علماء تكوينيين).

يدفعنا إيلدرچ نحو تصديق أن " الصخور التي كان من المفترض أن تكون أقرب ما يكون إلى نفس العصر بناء على المحتوى الحفري تأكدت لنا كلها عندما حصلنا على التواريخ باستخدام النظائر المشعة. اشد ما استغربه إلى أي من الكواكب يشير إيلدرچ لأن ذلك يستحيل أن يكون كوكب الأرض.

والحقيقة أننا نستطيع أن نوثق المئات بل الالاف من المتناقضات الخطيرة بين التواريخ البايونتولوجية المشار إليها في مقابل التواريخ النظائرية. والأخيرة هى التي تتحمل المسئولية، وهناك مجموعة متاحة ومحكمة من المبررات العقلانية للتوفيق بين التواريخ النظائرية المتخالفة (انظر أيضًا اسئلة وأجوبة: التاريخ الراديومتري).

هناك شيء أود أن أشير إليه إذا أردت أن تمضي في البحث عن أمثلة أخرى في هذا الكتاب، من الواضح أن هذا الكتاب بالكاد يستحق الورق الذى تحَّبر بكتابته. فهو كتاب غير دقيق، عفا عليه الزمن، وسطحي. وإذا كنت تبحث عن تحليل نقدي لقضية الخلق، فلا تضيع وقتك في قراءة هذا الكتاب.